كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٤ —

جمع المراجع والأصول التاريخية

الخطوة التالية بعد اختيار موضوع البحث التاريخي هي عملية جمع المادة التاريخية عن ذلك الموضوع سواء من المراجع العامة والخاصة أو من المصادر والأصول المطبوعة والمخطوطة، مع جمع ودراسة الآثار والمخلفات التي تتعلق بذلك الموضوع[1]. والمراجع العامة والخاصة تفيد في إعطاء فكرة عامة عن العصر الذي يكون موضوع البحث جزءاً منه. وعدم الاستفادة بما كتبه السابقون يعتبر مضيعة للوقت وإخلالاً بشروط البحث العلمي؛ فينبغي على كل جيل من المؤرخين أن يعرف ما كتبه السابقون، وأن يبدأ حيث انتهوا، وأن يعمل مؤرخ اليوم لكي يمهد لمؤرخ الغد. والمراجع العامة والخاصة تساعد أيضاً في كشف بعض الأصول التاريخية المجهولة وتفتح آفاقاً جديدة للبحث. والباحث الذي يكتب في ناحية من تاريخ مصر في القرن الثامن عشر مثلاً ينبغي أن يدرس بعض المراجع التي تناولت تاريخ مصر منذ أقدم العصور، كما يدرس بعناية المراجع التي تبحث في تاريخها أثناء القرن الثامن عشر، ويطالع ما كتبه الرحالون الذين زاروا مصر من الشرق ومن الغرب، ويدرس ما دونوه من المعلومات والمشاهدات، وذلك لكي يفهم تاريخ العهد المعين الذي يرغب في الكتابة عنه

وكيف يمكن للباحث أن يعرف كل المراجع العامة والخاصة والأصول المطبوعة عن الناحية التي يرغب في دراستها؟ الإحاطة بذلك ليست أمراً سهلاً. ويمكن الباحث في أول الأمر أن يستعين بالاطلاع على بعض المقالات في دوائر المعارف فيعرف بعض المراجع والأصول التي تهمه. ثم يرجع إلى كتب البيليوغرافيات (المراجع) التي تتناول موضوع دراسته. ولقد أصدر الغربيون أنواعاً مختلفة من البيليوغرافيات، فمنها البيليوغرافيات العامة ومنها الخاص بقطر أو بعصر أو بشخصية معينة؛ وبعضها يكتفي بذكر المراجع والمصادر وأماكن وسنى طبعها وعدد صفحاتها؛ بينما البعض الآخر يعطي مذكرات وصفية موجزة عن تلك المراجع والأصول المطبوعة[2]. إنما هذا لا يكفي، لأن كتب المراجع لا تكون وافية في كل الأحوال، وهي في الغالب لا تذكر شيئاً عن المقالات التي تنشر في المجلات التاريخية وهي كثيرة ومتنوعة؛ فمن الضروري إذاً مراجعة فهارس هذه المجلات للالمام بما كتب فيها عن الموضوع المعين. وكذلك يلزم الباحث أن يراجع فهارس دور الكتب المطبوعة وغير المطبوعة. ويجمع الباحث من كل هذه النواحي

(١) يسمى الدكتور أسد رستم عملية جمع المصادر والأصول بالتفتيش بمعنى الجمع، وأخذ ذلك من المحدثين مثل أبو حاتم الرازي من أعيان القرن ٣ هـ. راجع كتاب الدكتور رستم عن مصطلح التاريخ ص ١ — ٦

(١) بعض أمثلة من كتب البيليوغرافيا:

١ — International Bibliography of Historical Sciences
Edited by the international committee of Historical Sciences, Washington

ويصدر هذا المجلد مرة في السنة ابتداء من ١٩٢٦ ويشترك في وضعه طائفة من العلماء والباحثين، وله لجان فرعية في أقطار أوروبا وأمريكا وهو يتضمن قوائم مختارة بالمراجع والأصول التاريخية التي صدرت في عام مكتفيا بذكر مكان وتاريخ الطبع مع عدد صفحات الكتاب. والمؤلفات التي يوردها تشمل جميع نواحي التاريخ؛ تتناول طرق البحث التاريخي والعلوم المساعدة ودور الأرشيف والمؤلفات العامة عن التاريخ الدستوري والاقتصادي وعن تاريخ الحضارة وعصر ما قبل التاريخ وشعوب الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ الكنيسة القديم وتاريخ بيزنطة وتاريخ العصور الوسطى في الغرب ونواح مختلفة من التاريخ الحديث مثل التاريخ الديني والثقافي والاجتماعي وتاريخ العلاقات السياسية وتواريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا...

٢ — Bibliographie Critique des Principaux Travaux parus sur l'Histoire de 1600 à 1914 en 1932 et 1933.
Paris, 1935

نشرت هذا المجلد جمعية التاريخ الحديث في باريس. وهو يعطي قوائم عن نواح من التاريخ العام والخاص مع وصف موجز لما تتناوله من الموضوعات

٣ — من كتب البيليوغرافيات عن قطر معين نجد عن سوريا مثلا:
Röhricht, R.: Bibliotheca Geographica Palaestinae. Berlin, 1890
Masson, P.: Bibliographie Française de la Syrie. Marseille, 1919

ونجد عن مصر:

Ibr. Hilmy, Prince: The Literature of Egypte & The Soudan 2 vols. London, 1886—88

Maunier, R.: Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne (1798—1916) Le Caire, 1918

ونجد عن تاريخ كمال أتاتورك مثلا:

Melzig, H.: Atatürk Bibliyografyasi. Ankara, 1941

أسماء المراجع والأصول التي تعنيه ؛ ويحسن أن يستعين بعمل فهرس أبجدي على جذاذات من الكرتون ويضع عليها ملاحظاته ؛ وإذا اقتضى الأمر أن يكتب ملاحظات مطولة فليدونها على أوراق خاصة . ثم يبدأ في قراءة الكتب التي يصل إليها ويأخذ منها مذكرات باللغة الأصلية في المواضع الهامة على الأقل ، مع وضع أرقام الصفحات ؛ ويرجىء قراءة الباقي لحين الوصول إليه بتصويره بالفوتوستات أو بالسفر إلى مكان وجوده

ثم تأتي الأصول التاريخية التي لا توجد في أغلب الأحوال كتب بيليوغرافية تدل عليها . ومن هذا النوع نجد الوثائق والرسوم والصور ومخلفات الإنسان . . . والوثائق عبارة عن القوانين والأوامر والمنح والأحكام والفتاوى والعقود والمراسلات والمعاهدات والمذكرات والتقارير . وهي تحفظ في الأصل عند الملوك والأمراء وفي المحاكم والأديرة أو عند الأشخاص العاديين . وليس من الضروري وجود وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ ؛ فالكثير منها تتطمس آثاره وتزول دلالاته لأنها تتعرض في ظروف مختلفة للتلف والضياع مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة في التخلص منها وإتلافها عمداً عند ما تكون في حوزة من لا يفهم قيمتها التاريخية ، أو من يهمه منع تداول معلوماتها بين الناس . وبذلك يضيع الكثير منها بالنسبة للتاريخ ؛ وكأن الأفكار والحوادث التي كانت تحملها في طياتها وثناياها لم تكن في الوجود . وعلى ذلك فإن المؤرخ كثيراً ما يجد فجوات في التاريخ لا يستطيع أن يملأها . وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد ؛ وليس هناك ما يمكن أن يعوض عن ضياع هذه الوثائق ؛ وحيث لا توجد وثائق لا يوجد تاريخ . وينطبق ذلك على كل آثار الإنسان

وعملية البحث والكشف عن الوثائق Heuristic هي أهم عملية أساسية لكتابة التاريخ . وكشف كمية من الوثائق الهامة عن الموضوع المعين هو الذي يحدد إمكان الاستمرار في بحثه أو العدول عنه إلى غيره . والباحث الذي يكتب التاريخ وقد فاته الوصول إلى مجموعة من الوثائق الأساسية لا يكون لبحثه قيمة علمية مهما كانت كفاءته وقدرته على العمل . والباحثون الأولون في التاريخ قد لاقوا صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية ؛ وإذا كانت الحوادث التي قصدوا أن يكتبوا عنها قريبة العهد من العصر الذي عاشوا فيه ، فإنهم كانوا يرجعون إلى أقوال بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ويوازنون بينها ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية . على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائماً نظراً لتعرض الروايات الشفوية للتغيير والتعديل ، والأفكار والآراء والأقوال الشفوية إذا ما دونت أصبحت مسجلة ووقف تغييرها إلى الحد الذي وصلت إليه. فالوثائق ضرورية جداً للعهد القريب من المؤرخ فضلاً عن العهد البعيد عن الزمن الذي عاش فيه . والوثائق في أغلب الأحيان تنتقل بالتدريج من حوزة الأشخاص إلى الأماكن العامة وتحفظ في دور الأرشيف ودور الكتب وفي المتاحف والكنائس

والكثير من الوثائق المحفوظة في الأماكن العامة قد وضعت عنها كتالوجات وفهارس مختلفة ؛ إلا أنها في أحوال كثيرة أيضاً لا تزال غير وافية ، وأغلبها يكتفي بوضع أرقام مجلدات الوثائق مع بيان الشهور والسنوات التي تتناولها ، بدون أن تصف محتوياتها ، وهي بين قديم وحديث ومخطوط ومطبوع . كما أنه توجد وثائق في مصر وفي الخارج لم تنظم ولم توضع عنها الفهارس الأولية بعد ، وهذه بالنسبة للباحثين تعتبر في حكم المجهولة ، ولا يمكن الاستفادة منها قبل تقسيمها وترتيبها ترتيباً أولياً على الأقل ، وهذا كله يبين صعوبة البحث عن الوثائق . إلا أن التقدم مستمر في هذا الباب . ولقد وضعت كتالوجات وصفية لبعض نواح من الوثائق في دور الأرشيف بالغرب ؛ واهتمت الحكومات الغربية بإرسال بعثات خاصة إلى الخارج لكي تبحث في دور الأرشيف الأجنبية عن الوثائق التي تهم تاريخ بلادها وعند ما تفتح أرشيف الفاتيكان للباحثين أنشأت كثير من الدول معاهد خاصة في روما لكي يشتغل أعضاؤها بجمع ونسخ ووضع فهارس عن الوثائق التي تهمها في الفاتيكان ، فهكذا فعلت انجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وبلجيكا والدانمرك . . .

وكيف يمكن للباحث المبتدئ أن يشق طريقه في هذا البحر اللجاج ؟ لا ريب في أن طريق البحث وعر شاق ؛ ولا بد من الصبر والجلد ، ويستطيع الباحث أن يتصفح فهارس وكتالوجات الوثائق التي يظن أنها تحوي شيئاً يعنيه ، وبعض هذه الفهارس

مطبوع وأغلبها مخطوط . ومن حسن حظ الباحث أن تكون بعض الوثائق اللازمة له قد حصرت ونظمت ووضعت عنها الفهارس . ولكن ستبقى أمامه دائماً مناطق مجهولة لا بد من الإقدام على كشفها بنفسه . والباحث عن الوثائق يشبه المنقب عن الآثار الذى يظل سنوات عديدة يبحث فى مناطق مختلفة حتى يعثر فى النهاية على ما يرضيه ويُرضى العلم . ولنأخذ بعض الأمثلة العملية عن جمع الوثائق والأصول التاريخية . فالباحث فى دار المحفوظات المصرية بالقلعة عن تاريخ محمد على قائد الجند الألبانى ، بعد رحيل رجال الحملة الفرنسية عن مصر وقبيل ولايته حكم مصر ، سيجد مادة قد وضعت عنها بعض السجلات الأولية فيستعين بها فى فحص بعض دفاتر مرتبات العساكر الألبانيين ابتداء من ١٢١٧ هـ ، وسيجدها مكتوبة بخط الغيرمة ؛ فلا بد من الاستعانة على قراءتها بمن يعرف ذلك الخط ، حتى يتعلم الباحث قراءته بنفسه . وسيعثر الباحث فى هذه الدفاتر على اسم « محمد على أغا سرچشمه ء عساكر أرنؤود[1] » . وسيعلم بعض أشياء عن مرتباته وعن تكاليف عساكره . ثم يفحص أيضاً دفاتر « كشيده ء ديوان مصر[2] » ؛ ويجد أنها تحتوى على صور فرمانات سلطانية وأوامر باشوية بعضها يخص محمد على أغا . ثم يبحث بعض الأوراق التركية التى لم يتم وضع سجلات لها ، وهى عبارة عن بعض أوامر باشوية أو تذاكر ديوانية خاصة بمرتبات جند محمد على[3] .

وقد يسافر الباحث فى ناحية من تاريخ الشام إلى سوريا لمقابلة بعض العارفين بتاريخ البلاد وبدور الكتب بها كالدكتور أسد رستم فيجده قد انتقل إلى المصيف ، فيتبعه إلى ضهور الشوير ويتحدث إليه طويلاً ويأخذ منه ما يريد . وقد يحاول الاتصال بالأستاذ إسكندر المعلوف فينتقل إليه فى زحلة ويستفيد بخبرته ومعلوماته . ثم يقصد دمشق فيجد الأستاذ كرد على قد غادرها إلى شمالى سوريا ، وفى انتظاره يجتمع بالأستاذ عبد القادر المغربى وبالأستاذ حسنى الكسم فيتحدث إليهما

(١) أى قائد الجند الألبانى

(٢) أى دفاتر قيد ديوان مصر

(٣) علم هذه الدفاتر عند زميلى الأستاذ محمد محمد توفيق الوثائق المترجم بدار المحفوظات المصرية بالقلعة ١٩ ، ١٧

وتنفتح أمامه سبل لم يكن يعرفها من قبل ، وبذلك يمكنه الوصول إلى مجموعة من المخطوطات الأساسية التى لم تدرس من قبل

والباحث فى أرشيف الحكومة التاريخى فى فلورنسا[1] عن تاريخ المصادمات البحرية بين الأسطول العثمانى وبين السفن التسكانية فى القرن السابع عشر مثلاً ، يجد فى الفهارس والكتالوجات المطبوعة والمخطوطة بدار الأرشيف بعض ما يفيد فى فحص مجلدات خاصة ؛ ولكن هذا لا يكفى ، بل عليه أن يدرس عشرات من المجلدات فى سنوات معينة وفى نواح مختلفة ؛ فيفحص مثلاً المجلدات التى تحوى مراسلات ممثلى فلورنسا فى الدولة العثمانية ، ومذكرات التجار الفلورنسيين ، وتقارير رجال سان ستيفانو الواردة إلى حكومة فلورنسا ، والتى تحوى أخباراً عن حوادث ذلك الاصطدام . وكذلك يفحص المجلدات التى تضم صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى ممثليها فى الشرق الأدنى ، وإلى التجار الفلورنسيين ، وإلى رؤساء وقواد نظام سان ستيفانو[2] . وللغرض نفسه ينبغى أن يفحص أيضاً عشرات من المجلدات عن المراسلات الواردة من صقلية والبندقية وجنوا مثلاً إلى حكومة فلورنسا ، والتى تتضمن أخباراً عن هذه المصادمات ؛ ثم المجلدات التى تحوى صور المراسلات الصادرة من فلورنسا إلى كل تلك الجهات فى هذا الخصوص ؛ وينتج عن ذلك المجهود جمع مادة أصلية مهمة لم تكن معروفة من قبل عن موضوع البحث

ولا ينبغى على الباحث أن يقتصر فى جمع وثائق البحث الذى يدرسه على أرشيف واحد فقط ؛ فمن الضرورى البحث عن وثائق أخرى — إن وجدت — فى أمكنة متعددة ، وتتناول نفس الموضوع ، فيتجه الباحث إلى أرشيف الحكومة التاريخى فى ڤينا[3] ، لأنه يرى أن علاقات السلم والحرب كانت قوية دائماً بين الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا ، وأنه لا بد من أن أخبار

(١) Archivio di Stato di Firenze

(٢) أنشأ كوزمو الأول جراندوق تسكانا (١٥٣٧ — ١٥٧٤) نظام سان ستيفانو البحرى للدفاع عن سواحل تسكانا ولمهاجمة السفن العثمانية فى البحر الأبيض المتوسط

(٣) Haus-Hof-Und Staatsarchiv, Wien

الاصطدام البحري بين السفن العثمانية والسفن النمسكانية قد وصلت إلى ممثلي النمسا في القسطنطينية ، وأنهم قد أرسلوها بدورهم إلى حكومة ڤينا . ويكتب الباحث إلى مدير أرشيف ڤينا فيرسل إليه المعلومات التي يعرفها ؛ وملخصها أن المادة الموجودة عن ذلك الموضوع قليلة جداً وعديمة الأهمية . إنما ذلك لا يعني أن هذه المعلومات صحيحة ، ولا يقتنع الباحث برد مدير الأرشيف . ويسافر بنفسه إلى ڤينا ، ويجد أن الكتالوجات الموجودة لا تفيد شيئاً ؛ ولكن ذلك لا يمنعه من البحث ؛ فيعمل بعض الزمن وينتهي به الأمر إلى كشف طائفة ممتعة من الوثائق الألمانية والإيطالية عن الموضوع الذي يدرسه ، فيحملها إلى مدير الأرشيف ويرجوه أن يدرجها في كتالوجاته . ونلاحظ أن الباحث ينسخ بنفسه جزءاً من الوثائق التي يعثر عليها ، ويمكنه اختصاراً للوقت أن يشترك معه بعض الإخصائيين في نسخ جزء من الوثائق ، كما يمكنه أن يصور بالفوتوستات جزءاً آخر على حسب الحالة . ولا يكتفي الباحث بكل ذلك ، بل يمضي في البحث والكشف عن الوثائق في أماكن أخرى مثل باريس ومدريد ولندن . . . ويدرس الباحث المادة التي جمعها ويقارن بين مجموعات الوثائق التي كشفها ويوازن بين معلوماتها وبين ما وصل إليه من المراجع والأصول المطبوعة ، ويستخلص الحقائق التاريخية التي يمكنها الوصول إليها ، كما سنرى ذلك في المقالات التالية . وهذه كلها أمثلة عملية تعطي فكرة عامة عن كيفية البحث عن الوثائق والأصول التي تظل مجهولة للعلم حتى يُكشف عنها . وإلى آخر لحظة يظل الباحث يتوقع كشف أصول جديدة توضح أو تغير ما وصل إليه من الحقائق مما قد يضطره إلى تعديل معلوماته إذا لم يكن قد طبع بحثه بعد ، أو إلى تغييره إذا ما أعاد طبعه[1]

ويتصل بالوثائق الرسوم والصور وهي مهمة من الناحية التاريخية . والأثر الذي يحدثه الشكل يسجله الفنان على الورق أو على المرمر ، والوصف الكتابي مفيد في بيان عادات وخلق نابليون مثلاً ؛ ولكن رسم الفنان إياه أو صنع تمثال له يعطينا فكرة مجسمة تضاف إلى ما نعرفه من أوصافه بطريق الكتابة .

(١) الباحث لا يمكنه الرجوع إلى وثائق أرشيف القسطنطينية مثلا لعدم ترتيبها وتنظيمها بعد مما لا يسمح ذلك بدراستها الآن

والرسوم والصور وثائق مهمة لأنها تحفظ لنا أبداً آثاراً وأشكالاً ومناظر وأزياء مختلفة قد تغيرت معالمها أو زالت من الوجود ، ولا تستطيع أن تعبر عنها بوضوح الكتابة الوصفية . وتزداد أهمية التصوير بعد تقدم استعمال الفوتوغرافيا في الوقت الحاضر ، فهي تسجل مشاهد عديدة للانسان ولآثار الحضارة والعمران

ومن الأصول المهمة أيضاً نجد آثار الإنسان ومخلفاته وتقاليده ، كما عرفنا ذلك في مقال سابق[1] . وأعمال الحفر والتنقيب تكشف عن مخلفات العصور القديمة ؛ والبحث في بعض الأماكن يؤدي إلى العثور على آثار الإنسان في العصور الحديثة . ويجب على الباحث أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذي يكتب عنه . وينبغي أن يزور المباني القائمة التي كان رجال العصر يعيشون فيها ، والحدائق التي كانوا يروحون عن خواطرهم في أرجائها ، وأن يتعرف طرق المعيشة والأزياء وأدوات الحرب وآلات الموسيقى . . . وفي الغالب تحوّل المباني إلى متاحف وتجمع فيها بعض آثار الإنسان . ولا ريب فإنه من الضروري للمؤرخ أن يعيش فترة خلال هذه الذكريات التي نأت من الماضي إلى الحاضر ، وأن تشيع في نفسه هذه الرؤى وتلك الخلجات التي أحاطت برجال العصر الذي يدرسه

(يتلى) حسن عثمان

استدراك : في العدد ٤٢٦ من الرسالة ص ١٠٨٦ قد سقط عنوان المقاله ٣ وهو « اختيار موضوع البحث التاريخي » فلزم التنويه

(١) راجع مجلة الرسالة عدد ٤٢٣ ص ١٠٠٢

إعلان وتحذير

تعلن الست فاطمة عبد العزيز نور من ناحية كفر دميرة القديم مركز طلخا غربية بأنه إذا ظهرت لدى أي شخص أوراق مبصومة بختمها الذي كان بطرف أخيها خالد افندي عبد العزيز نور من الطويلة تعتبر مزورة ويعاقب حاملها وقد أخذت من أخيها المذكور إقراراً بذلك وتسلمت منه الختم ، وكسرته وجددت بدلاً منه من هذا التاريخ .